العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين الفاسي

عرض : معالي عبد الحميد حمودة

تمهيد:

لا يظن القارئ أننا نعرض لأحد الكتب العادية التي تتناول تاريخ مكة المكرمة، زادها الله تشريفاً وتعظيماً، بل إننا نعرض لكتاب قيم وسفر نفيس هو كتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين».

ولعل بعض القراء قد يعارضون ـ في زمن أصبحت السرعة تغلف الزمن وتحيط به ـ في تحليل كتاب ضخم من كتب التراث. والحقيقة أن ذلك القول يؤذي ثقافتنا العربية الإسلامية ويلحق بها الضرر الكبير؛ لأن ذلك القول من شأنه أن يقطع صلتنا بتراثنا العربي الإسلامي العريق، وقد عرفنا أن من لا تراث له لا حاضر له ولا مستقبل، ولا نستطيع قياسا على ما يقال أن نضع تراثنا فوق رفوف المكتبات أو داخل غرف المخطوطات والمطبوعات ولا نعرضه على القراء، ذلك أن تراثنا العربي الإسلامي تراث متصل بالحاضر وكاشف للمستقبل من ناحية تحديد الملامح الثقافية لأمتنا العربية الإسلامية، ولا نستطيع أن نبعد هذا التراث الأصيل عن حياتنا الثقافية والفكرية تحت أي مسمى من المسميات المخادعة الزائفة التي نسمع عنها اليوم.

ولا شك أن لدينا أسباباً تجعلنا نهتم بالقراءة والتحليل لكتاب «العقد الثمين» وهي تتلخص فيما يلي :

* أن الكتاب يتناول تاريخ مكة المكرمة ، ومكة هي المركز الروحي للعالم الإسلامي .

* أن مؤلف الكتاب لم يحصل على حقه من التكريم ، والتكريم في نظرنا أن نلقي الضوء على جهوده الكبير ورحلاته العجيبة في طلب العلم ، ثم ما دونه بعد ذلك في كتابه القيم .

* أن كتاب «العقد الثمين» المطبوع في ٨ أجزاء يرد من جهة على ما يردده فريق من المستشرقين من أن جزيرة العرب كانت فقيرة ـ علميا ـ وأنه ليس هناك من نتاج علمي يثبت عكس ذلك ! !

* أن الكتاب ، وإن كان أصلا من كتب التراجم ، إلا أنه يحوي فوائد علمية كثيرة لا نجدها في كثير من كتب التاريخ الإسلامي المعروفة ، بل إن ذلك الكتاب يحوي مقدمة علمية تاريخية عن مكة والجاهلية ودخول الإسلام وغير ذلك مما لا يجده القارئ مدونا بتلك الدقة وذاك الترتيب في كتب أخرى .

* أن الكتاب يحوي معينا تاريخيا لا ينضب من الموضوعات المختلفة والتي يمكن لأي باحث أن يستخرج منها عشرات الموضوعات المتنوعة التي تخدم الإسلام وتاريخه ، وتلقي الأضواء على الحالة الاقتصادية ، والعمرانية ، والاجتماعية ، والسياسية لجزيرة العرب . كما أنه بالنسبة للتراجم التي أوردها المؤلف ، فهي توضح حقيقة أن مكة المكرمة ـ المركز الروحي للعالم الإسلامي والمسلمين ـ أخرجت لنا وللدنيا علماء وفقهاء وأدباء وشعراء لا نجد مثلهم في أية أمة من الأمم التي يقال لنا ـ بلغة العصر ـ إنها أمم متقدمة .

تقي الدين الفاسي (١)

هو محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن علي ابن عبد الرحمن بن سعيد بن أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علي ابن حمود بن ميمون بن إبراهيم بن علي بن عبد الله بن إدريس بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب(٢).

يكنى أبا عبد الله، وأبا الطيب، وبها اشتهر أيضا. ويلقب تقي الدين الحسيني، الفاسي، المكي، المالكي، قاضي المالكية بمكة المكرمة.

ولد في ٢٠ من ربيع الأول سنة ٧٧٥ هجرية، ونقل مع والدته وأخيه نجم الدين بن عبد اللطيف إلى المدينة المنورة؛ لأن خالهما - محب الدين النويري - كان بها قاضيا.

درس القرآن الكريم حتى جوّد حفظه، وسمع الحديث على أم الحسن فاطمة بنت شهاب الدين الحرازي، ثم قرأ سنة ٧٨٧ هجرية الأربعين للنووي، وكتاب الرِّسالة لابن أبي زيد المالكي.

في شوال سنة ٧٨٨ هجرية انتقل تقي الدين الفاسي وأخوه وأمهما من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة بعد وصول خالهما إليها قاضيا وخطيبا، ثم قرأ المؤلف بمكة عمدة الأحكام حتى حفظها، وفي تلك السنة صلى صلاة التراويح بمقام الحنابلة بالمسجد الحرام.

وابتدأ تقي الدين الفاسي ينهل من علوم الدين الحنيف، فدرس مختصر ابن الحاجب، ثم سمع صحيح البخاري، ومسند الدارمي، والموطأ للإمام مالك، والشفاء للقاضي عياض، وصحيح مسلم، وجامع الترمذي، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجة وغير ذلك على أيدي علماء كبار وفقهاء عمالقة، وواصل العلم فقرأ - أيضا - كتب اللغة والفقه على أيدي قضاة ومحدثين كبار.

في سنة ٧٩٧ هجرية رحل مع أخيه ـ بعد أداء فريضة الحج ـ إلى الديار المصرية، وهناك سمع وقرأ وتعلم، وفي مصر أذن لـه الحافظ زين الدين العراقي أن يدرس في علم الحديث.

وفي شعبان سنة ٧٩٨ هجرية ترك المؤلف القاهرة، ورحل إلى دمشق لسماع الحديث، وقرأ بدمشق كتب الحديث والسنن.

وفي صفر سنة ٧٩٩ هجرية عاد إلى القاهرة، ثم زار المسجد الأقصى وسمع هناك من علمائه وسمع أيضا بغزة. ثم رجع إلى القاهرة وأذن لـه بالفتوى والتدريس، وبعدها سافر إلى دمشق وسمع بها أشياء كثيرة من الكتب والأجزاء الحديثية لم يكن سمعها من قبل.

عاد إلى القاهرة في رمضان سنة ٨٠٠ هجرية، ثم حج إلى بيت الله الحرام، وذهب بعد أداء فريضة الحج ـ سنة ٨٠١ هجرية ـ إلى القاهرة ورحل منها إلى الإسكندرية.

وفي سنة ٨٠٢ هجرية رحل إلى دمشق، وسمع على علمائها وشيوخها وفقهائها، ثم عاد إلى القاهرة وبعدها رحل إلى مكة وأقام بها يتعلم ويعلّم حتى حج إلى بيت الله الحرام سنة ٨٠٥ هجرية وقرأ على علماء مكة المكرمة.

بعدها واصل رحلاته في طلب العلم فرحل إلى اليمن وسمع بها وبعدن، ثم توجه إلى مكة المكرمة فبلغها في أواخر ذي القعدة سنة ٨٠٦ هجرية، وبعد الحج ذهب إلى المدينة المنورة وبقي بها فترة، ثم رحل إلى دمشق سنة ٨٠٧ هجرية فسمع بها، وعاد بعد ذلك إلى الديار المصرية ثم انطلق إلى مكة المكرمة وتولى قضاء المالكية بها.

وفي أوائل ذى الحجة سنة ٨٠٧ هجرية قرئ توقيع المؤلف بالولاية بالمسجد الحرام خلف مقام الحنفي، ودرّس بالمسجد الحرام وأفتى كثيرا.

وفي سنة ٨١٢ هجرية زار المدينة المنورة، وحضر بها مجلس الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الوانوغي في الأصول والفقه وغير ذلك، وأذن له «الوانوغي» في الإفتاء والتدريس، وكتب له بخطه بذلك، ومما كتبه الوانوغي:

(كان ممن اجتمعت به وذاكرته، وباحثته مراراً عديدة في مسائل كثيرة من مسائل الفقه وغوامضه، وما يتعلق بها. وتكررت أسئلته عن ذلك كله ومباحثه فيها، مرة بعد أخرى السيد الفقيه، الفاضل، الأعدل، الأكمل، الجامع للصفات الفاضلة، الحسيب الأصيل، القاضي تقي الدين محمد بن الشيخ الحسيب الأصيل شهاب الدين أحمد بن علي الفاسي، نفع الله بفوائده وعلومه الجليلة)(٣).

استمر تقي الدين الفاسي متوليا قضاء المالكية والتدريس بالمدرسة السلطانية التي بالجانب اليماني من المسجد الحرام عند باب الحزورة، حتى استبدل بغيره في شوال سنة ٨١٧هـ ثم عاد إلى منصبه العلمي ثانية، واستقر به بدءاً من جمادى الأولى سنة ٨٢٠ هجرية.

مضت حياة هذا العالم الجليل حتى كف بصره، ثم وافاه الأجل المحتوم في ليلة الأربعاء ثالث شوال سنة ٨٣٢ هجرية بمكة المكرمة، وصلي عليه بعد صلاة الصبح عند باب الكعبة المشرفة ودفن بالمعلاة، رحمة الله عليه.

ولا شك أن القارئ يعجب من رحلات المؤلف في طلب العلم، هذه الرحلات التي بدأت من مكة المكرمة إلى القاهرة فدمشق فالمسجد الأقصى ففلسطين فاليمن، وكانت مكة والمدينة والقاهرة نقاط الانطلاق والالتقاء الرئيسة للمؤلف في رحلاته من أجل طلب العلم.

وقد أجاز المؤلف كثير من العلماء والأعلام، وقرأ عليهم، وأخذ عنهم، بل تذكر بعض المصادر أن شيوخه تجاوز عددهم خمسمائة، ومن أشهرهم على سبيل

المثال لا الحصر:

* الإمام العلامة قاضي مكة جمال الدين محمد بن عبد الله بن ظهيرة القرشي المخزومي المكي.

* قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن أحمد النويري الشافعي ـ جد المؤلف لأمه ـ خطيب مكة وقاضيها، عالم الحجاز في عصره المؤرخ الشهير.

* قاضي الحرمين محب الدين النويري، خال تقي الدين الفاسي.

* الإمام أبو المعالي عبد الله بن عمر الصوفي.

* العلامة اللغوي قاضي اليمن مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزآبادي (٧٢٩هـ ـ ٨١٧هـ) صاحب «القاموس المحيط».

* العلامة المؤلف المفتي الشيخ كمال الدين محمد الدميري المصري الشافعي، ثم المالكي (ت ٨٠٨هـ) صاحب «حياة الحيوان الكبرى».

* العلامة إبراهيم بن محمد الدمشقي الصوفي المعروف بالبرهان.

* الإمام المؤرخ المشهور ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) صاحب الموسوعة الفذة «تاريخ ابن خلدون».

* الإمام الشهاب أحمد العلائي.

وغيرهم كثير.

أما مؤلفات تقي الدين الفاسي فهي:

١ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام.

٢ - تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام، وهو اختصار لكتاب «شفاء الغرام»، ويسمى أيضا «تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام».

٣ - هادي ذوي الأفهام إلى تاريخ البلد الحرام، وهو مختصر من كتاب «تحفة الكرام».

٤ - الزهور المقتطفة في تاريخ مكة المشرفة. وهو مختصر من كتاب «هادي ذوي الأفهام».

٥ - عجالة القرى للراغب في تاريخ أم القرى. وهو مختصر من «العقد الثمين».

٦ - الجواهر السنية في السيرة النبوية.

٧ - ذيل التقييد بمعرفة رواة السنن والأسانيد لابن نقطة.

٨ - منتخب المختار المذيل به على تاريخ ابن النجار.

٩ - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين.

١٠ - مختصر كتاب «حياة الحيوان» لكمال الدين الدميري.

١١ - إرشاد ذوي الأفهام إلى تكميل كتاب الأعلام بوفيات الأعلام للحافظ شمس الدين الذهبي.

١٢ - عدة تآليف في المناسك.

وله بعض المؤلفات الصغيرة في الأحاديث، والمرويات بالسماع، والإجازة، وغير ذلك.

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين:

النسخة التي بين أيدينا تقع في (٨) أجزاء، الجزء الأول تحقيق الأستاذ محمد الطيب حامد الفقي، والأجزاء من الثاني إلى السابع تحقيق الأستاذ فؤاد سيد، والجزء الثامن - الأخير - تحقيق محمود محمد الطناحي، وطُبع الكتاب على نفقة معالي الشيخ محمد سرور الصبان وزير المالية السابق بالمملكة العربية السعودية،

وتواريخ طبع أجزاء الكتاب خلال السنوات ١٣٧٩هـ إلى عام ١٣٨٨هـ (١٩٦٩م) وبمعرفة مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة طُبِعَ الكتاب.

الكتاب كما يتم التعريف به هو شامل لتراجم أعيان مكة المكرمة وغيرها ممن سكنها أو مات بها، وولاتها وقضاتها وخطبائها وأئمتها ومؤذنيها من أهليها وغيرهم، وتراجم من وسّع المسجد الحرام أو عمّره أو عمّر شيئا منه وغير ذلك.

وقبل أن نعرض للكتاب يهمنا أن نبين أن التقي الفاسي جمع بين علم التاريخ وعلم الجغرافيا والتراجم في كتابه، فكتابه كتاب تاريخ، وكتاب جغرافي، وكتاب تراجم يشتمل أيضا على كثير من وصف الأماكن المعمارية والعمرانية والآثارية، كما قام المؤلف ـ رحمه الله ـ بتضمين كتابه العديد من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، وعلوم الدين الحنيف من فقه وشريعة. . . إلخ.

ولا نبالغ إذن عندما نقول إن كتاب «العقد الثمين» يعد بمثابة «دائرة معارف» متكاملة عن مكة المكرمة.

يقول المؤلف تقي الدين الفاسي مبينا مقاصده من تأليف كتابه «العقد الثمين»: (. . فإني ـ لما وفقني الله تعالى للاشتغال بالعلم ـ تشوفت نفسي كثيرا إلى معرفة تراجم الأعيان من أهل مكة وغيرهم، ممن سكنها مدة سنين، أو مات بها. وتراجم ولاة مكة وقضاتها وخطبائها، وأئمتها ومؤذنيها من أهلها وغيرهم. وتراجم من وسّع المسجد الحرام أو عمره، أو عمّر شيئا منه، أو من الأماكن الشريفة التي ينبغي زيارتها بمكة وحرمها. . . . . . ، وفتشت عن تأليف في ذلك فلم أر له أثرا، ولا سمعت عنه خبرا)(٤) أي أن المؤلف عزم على أن يضع كتابا عن مكة المكرمة يشمل «كل شيء» عن هذه المدينة العظيمة وكل ما يتعلق بها.

وقد اعتمد المؤلف ـ كما قال في مقدمته للكتاب ـ على موارد ومصادر وكتب ومؤلفات نفيسة وعديدة(٥).

بعد المقدمة ذكر المؤلف عدة أبواب عن ذكر مكة المكرمة، وحكم بيع دورها وإجاراتها، وأسماء مكة، وحرم مكة، والأحاديث الدالة على حرمتها، وأخبار عمارة الكعبة، وصفة الكعبة المشرفة وكل ما يتعلق بها، ثم بيان مصلى النبي - ﷺ -، وثواب دخول الكعبة، وفضائلها، والآيات المتعلقة بها، وأخبار الحجر الأسود، والمقام، وأخبار تاريخية عن توسعة المسجد الحرام، وأساطينه وشرفاته وقناديله وأبوابه ونحو ذلك. ثم يتحدث المؤلف عن مدارس مكة وسقاياتها، وأخبار مكة في الجاهلية، وأخبار قريش بمكة في الجاهلية، ثم حلف الفضول، وأجواد قريش وحكامهم في الجاهلية، وفتح مكة المشرفة، وولاة مكة في الإسلام، ويعود المؤلف فيتحدث عن أمطار مكة وسيولها، ثم يذكر الأصنام التي كانت بمكة وحولها، وأسواقها في الجاهلية والإسلام.

بعدها يذكر المؤلف أسماء رسول الله - ﷺ -، ونسبه، وأشياء من ولادته إلى وفاته، وبعدها يؤرخ في عبارات تاريخية وجيزة لسرايا وغزوات الرسول - ﷺ -، ويعقد فصلا لكتبه إلى الملوك، وبعد ذلك يؤرخ لوفاة خاتم النبيين - ﷺ -، ثم يترجم لأولاده، وأعمامه، وزوجاته، وخدامه، ومواليه، وإمائه، وخيله، وبغاله وحميره وغنمه، ثم سلاحه، وكتابه، ومغازيه، وبعوثه وسراياه، ثم أخلاقه العظيمة - ﷺ - وفضائله وبعض معجزاته.

ثم يترجم الكتاب تحت عنوان (المحمدون)، والقصد ترجمة لمن اسمه «محمد» تشريفا باسم رسول الله - ﷺ -، وبعد ذلك تحت عنوان (الأحمدون) يترجم الكتاب لمن اسمه «أحمد»، وبعدها يذكر التراجم على ترتيب حروف المعجم.

أما آخر أجزاء الكتاب، وهو الجزء الثامن، فهو يترجم تحت عنوان (باب الكُنَى) ويقول المؤلف: (هذا الباب يذكر فيه من ذَوي الكُنَى، من يعرف له اسم، ومن عُرف بكنيته، ولكن اختلف في اسمه، ومَن اشتهر بكنيته وإن كان

اسمه معروفاً. وهؤلاء لم أترجمهم كما ترجمت المذكورين في هذا الباب، لتقدم تراجمهم في محلها من الكتاب، وإنما أذكر كنية الإنسان منهم، وما يعرف به من نسبته إلى قبيلة أو بلد، ثم أذكر اسمه واسم أبيه وجده في الغالب)(٦).

وبعد أن يترجم تقي الدين الفاسي لأصحاب الكُنى، يترجم تحت عنوان (باب في النساء) على ترتيب حروف المعجم، وينهي المؤلف كتابه القيم وقد بلغ عدد التراجم كلها الموجودة في جميع أجزاء الكتاب (٣٥٤٨)ترجمة.

وبعد..

فقد حوى كتاب (العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين) الكثير من الأخبار، والأحاديث، والآثار، والحكايات، والأشعار، والوقائع التاريخية البالغة الأهمية، حتى إننا عندما نقول إن الكتاب قد قدم تفاصيل تاريخية دقيقة لحقبات تاريخية كثيرة من الزمن لم نجدها في كتب التاريخ الأخرى نكون قد أصبنا كبد الحقيقة.

ومن الملاحظ على منهج التقي الفاسي في تراجمه، أنه جمع في كثير من التراجم بين الترجمة الشخصية والترجمة حسب السنين. بمعنى أنه ذكر العديد من الوقائع التاريخية حسب السنين ضمن الترجمة الشخصية، وهذا منهج تاريخي إسلامي بحت، سبقه إليه كثير من المؤرخين المسلمين العمالقة، والتقي الفاسي عندما التزم بذلك في منهجه التاريخي فإنه يوضح من ناحية التأصيل العلمي أنه طالع كتبا كثيرة، وقرأ مؤلفات عديدة في التاريخ والطبقات والتراجم.

كما لوحظ أن المؤلف التزم بالأمانة العلمية في معظم مادة كتابه النفيس، وكان يلبس ثوب المؤرخ المحايد المهذب، فلا ينقد إلا بدليل علمي، ولا يجرح أو يسب أو يشتم أو يتطاول، وهو في ذلك أوضح تطبيق للمؤرخ المسلم وما ينبغي أن يتسلح به.

وتقي الدين الفاسي ـ رحمه الله ـ قصد ـ كما قال في مقدمته ـ أن يضع كتابا عن مكة المكرمة وكل شيء يتعلق بها، ورجالها، ونسائها، وعلمائها، وقضاتها، وولاتها، وأحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغير ذلك كثير.

وقد حقق المؤلف ما عزم عليه بفضل الله تعالى، وجاء كتابه «العقد الثمين» بمثابة أكبر موسوعة في تاريخ مكة المكرمة، وقد ملأ الكتاب فراغا في المكتبة العربية والإسلامية.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

الهوامش

(١) رجعنا في التعريف بالمؤلف إلى الترجمة الطويلة التي وردت له في كتابه العقد الثمين ج١/ ٣٣١ـ٣٦٣، وتصرفنا في الترجمة ببعض التنسيق والترتيب، كذا رجعنا إلى مقدمة كتابه (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام) للمؤلف نفسه، الجزء الأول، ونهاية الجزء الثاني من الكتاب ص٤٣٢ـ٤٣٣ تحقيق مجموعة من العلماء والأدباء، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون تاريخ.

(٢) نقلا عن العقد الثمين ج ١/ ٣٣١.

(٣) انظر العقد الثمين ج ١/ ٣٣٩.

(٤) العقد الثمين: مقدمة المؤلف، ج ١/ ٣.

(٥) انظر بحثنا بعنوان: موارد تقي الدين الفاسي، منشور بمجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، العدد التاسع، ربيع الأول/ جمادى الآخرة ١٤٠٤ هجرية، ص. ص ٣١٣ـ٣٢١.

(٦) العقد الثمين: ج ٨/ ٣.